عصرضعف السلاجقة وبداية الحروب الصليبية 1180-1092/-575-485

عصر ضعف السلاجقة منذ وفاة ملكشاه وحتى خلافة الناصرلدين الله:

شكل حكم السلطان السلجوقي ملكشاه عصر قوة السلاجقة ، وعهد تهم وتحكمهم في امور الخلافة العباسية وكان عهده عهد توحد الاسرة السلجوقية ، إذ لم تشهد الاسرة السلجوقية أية انقسامات طفت على سطح ما عدا ما حدث بين تاج الدين تتش وبين سلاجقة الروم كما سلفنا عند التكلم عن تلك المدة، وهابت الدولة السلجوقية القوى المحلية الدول المجاورة ، ولم يؤخذ عن حكم السلطان السلجوقي ملكشاه إلا ماخذ احد وهو تدخله من اجل تعيين حفيده من ابنته جعفر لكن الخليفة المقتدي بالله رفض ذلك واصر على عدم تعيين ابنه جعفر وليا للعهد ، طلب منه ملكشاه مغادرة بغداد ، غير أن الخليفة العباسي رفض هذا الأمر حلت المشكلة كما مر بنا بوفاة السلطان السلجوقي ملكشاه .خلف السلطان السلجوقي ملكشاه تركة ثقيلة من المشاكل واهمها مكلة ولاية العهد التي لم يتوصل لحلها ، لحسم أمور كثيرة داخل الأسرة السلجوقية الحاكمة ، التى كانت غالبا ما تتمسك بتقاليدها القبلية ، وهي ضرورة أن يكون الرجل الأكبر في الأسرة هو الحاكم الفعلي للأسرة وعلى الجميع الخضوع له انطلاقآ من مبدآ قبلي قديم يعتقد به السلاجقه حيث يولى الرجل الكبير قياده القبيله عندهم

عصر بركياروق بن ملكشاه: 485-498هـ /1092-1104م

تولى بركياروق رئاسة الاسرة السلجوقية ، بعد وفاة والده ملكشاه لكنه لم يهنأ بما ترك له والده من ادارة دولة مترامية الأطراف ، فعادت المشكلة من جديد وهي المنافسة بين الاعمام وابناء الاخ فضلاً. الاخوة انفسهم. وقد ادى مع كل طرف عناصر مستفيدة من هذا الصراع ، ولم يعن هؤلاء الا بتلبية مصالحهم الخاصة مفضلينها على مصالح الدولة السلجوقية وعلى مصالح البلاد الإسلامية التي أخذت تهددها الاعمال العدوانية الخارجية وتحالف دول أوربا في ذلك الوقت التي كانت تمهد لغزو البلاد الإسلامية عبر ما يعرف بالحروب الصليبية لم يستطع بركياروق تولي مقاليد الأمور بعد وفاة والده الذي كاز متوجها إلى بغداد لإرغام الخليفة العباسي على تنحية ولي العهد وتنصيب ابن بنت السلطان السلجوقي ملكشاه وليا للعهد . فقد سعت زوجة السلطان السلجوقي التي كانت مع زوجها في حملته على بغداد، إلى عدد من الاجراءات التي تمكنها من تنصيب ابنها ولياً للعهد حيث ضمنت موافق القادة السلاجقة وكبار موظفي البلاط السلجوقي على هذا الأمر ، فضلا عن السعي لاستصدار منشور من الخليفة العباسي يقر بموجبه ابنه سلطاناً على السلاجقة. وقد تم لها ما أرادت

، فنصب ابنها محمود سلطاناً على السلاجقة ولما يبلغ الخامسة من العمر وهنا وقف بركياروق المدعوم من قبل أبناء نظام الملك موقفاً مغايراً إذ أعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة من مدينة أصفهان التي كان موجوداً فيها وعين ع الملك بن نظام الملك وزيراً له. لم تقبل تركان خاتون زوجة ملكشاه بهذا الأمر (وهي ام محمود وتوجهت إلى مدينة اصفهان فاضطر بركياروق الى مغادرة المدينة الى الري ، وجرت موقعة هزمت فيها تركان خاتون وانسحبت الى اصفهان فتبعها بركياروق وحاصر المدينة وقتل وزيرها تاج الملك الشيرازي ولما لم يكن الوقت يسمح بحصار طويل لمدينه اصفهان حيث كانت الاحداث متسارعه . غادر بركياروق مدينه اصفهان واتخذ من مدينه همدان مقراً له .

لم تركن تركان خاتون الى الهدوء بعد هزيمتها أمام بركياروق ، بل أخذت تحيك المامرات تلو المامرات من أجل تحقيق رغباتها في ان يكون ابنها هو السلطان الفعلي للسلاجقة ، فاتصلت بامير آذربيجان اسماعيل بن ياقوتي)) وطلبت منه ان يتحالف ضد ابن اخته بركياروق وافق على عقد تحالف بين الطرفين، وربما وعدته تركان خاتون بالزواج مقابل هذه المساعدة الا ان بركياروق وانصاره كانوا لهذه كان المحاولة بالمرصاد، فتم اغتيال اسماعيل بن ياقوتي ، وبذلك انتهى هذا التحالف الذي حاكته تركان ،خاتون ولما فشلت هذه المحاولة سعت تركان خاتون الى عقد تحالف جديد مع عم بركياروق وهو تاج الدين تتش حاكم الشام ((الا ان الوفاة ادركتها سنة 487هـ /1094م ، وبذلك تخلص بركياروق من منافس قوي وطموح ظل يحيك الدسائس ضده مدة من الزمن أما موقف عم بركياروق المدعو تاج الدين تتش امير الشام فلم يكن باقل من موقف زوجة ابيه ، فقد خرج تنش مطالبا بالعرش السلجوقي ورفض ان يكون تابعاً لابن اخيه الصغير بركياروق ، وان يعترف به على السلاجقة مستغلاً ولاء بعض الامراء له ، فضلاً عن قوته العسكرية التي استطاع ان يحشدها ضد ابن اخيه بركياروق ، فتحرك تاج الدين تتش في سنة 486هـ / 1093م وضم حلب وانطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين وهذه كما نعلم هي أجزاء من سلطنة سلاجقة الروم كما مر بنا قبل قليل ، وسيطر على مدينة الموصل التي كانت خاضعة للعقيلين بعدها.. أرسل الى الخليفة العباسي المقتدي بالله) 467 487هـ /1075-1094م) طالبا منه التقليد وان يخطب له رئيساً السلاجقة، فوافق الخليفة العباسي وعزل محمود بن ملكشاه عن السلطنة وبهذا اصبح تتش هو السلطان الفعلى للسلاجقة وبدأ يحقق حلمه التالي باخضاع ابن اخيه بركياروق لسيطرته ويضم المناطق التابعه له الى سلطانه

بعد هذه التصرفات من تاج الدين تتش أدرك بركياروق نوايا عمه خاصة وانه بدأ باخضاع مناطق اخرى ووضعها تحت سيطرته مثل ديار بكر وميافارقين فكان لابد من المواجهة بين الاثنين فجرت

موقعة عسكرية بين الطرفين، استطاع فيها بركياروق من استمالة قسم من جيش عمه تتش الى جانبه ، فكانت الغلبة والنصر لبركياروق ، فعاد تتش خائباً مدحوراً إلى بلاد الشام ، لكنه لم ييأس من اعادة المحاولة مرة اخرى(تحالفه مع تركان خاتون ام محمود) فأخذ يستجمع قواه لعله ينجح في تحقيق هذا الحلم وقد جن جنونه عندما حصل بركياروق على التقليد بعرش السلطنة السلجوقية من الخليفة العباسي المقتدي بالله في سنة 487هـ / 1094م .تحرك تتش هذه المرة باحكام أدق وتصرف مدروس فبدأ اولاً بالتخلص من العناصر التي يشك بولائها الى ابن اخيه بركياروق وتحرك بسرعة إذ لم يترك مجالاً لإبن أخيه بركياروق وسيطر على عدد من المناطق ووضعها تحت سيادته مثل خلاط و اذربيجان وهمدان (مقر بركياروق) . تحرك بركياروق الذي كان في هذا الوقت في نصيبين المواجهة عمه تاج الدين تتش، فاستعان بالنظامية وهم أبناء نظام الملك وكان لهم تأثير بارز على الساحة السياسية فعين فخر الملك وزيراً له (بعد وفاة أخيه عز الملك) . لكن الاجراءات التي اتخذها تتش افشلت كل مساعي بركباروق، فكانت الهزيمة من نصيب بركياروق ، الذي انسحب الى اصفهان (حيث كان اخاه محمود قد تحصن بها مع والدته تركان خاتون كما مر بنا قبل قليل) حيث توفيت زوجة ابيه تركان خاتون واخيه محمود، فسارع انصار اخيه محمود للانضمام الى بركباروق واعانوه ضد عمه تاج الدين تتش ، فانتصر عليه .

بعد انتصار تاج الدين تتش ارسل الى الخليفه العباسي المستظهر بالله رسالة يطلب منه تقليده عرش السلطنه السلجوقيه .فوافق الخليفه

العباسي مضطراً إلى ذلك ، وعزل بركياروق من عرش السلطنة. لكن بركياروق لم يترك عمه تتش يهنأ بعرش السلطنة السلجوقية فأخذ ينظم نفسه تنظيماً جديداً فاستعان بوزيره مؤيد الملك بن نظام الملك ، الذي اخذ يكاتب امراء الجند السلجوقي ويذكرهم بفضل والد بركياروق عليهم السلطان السلجوقي (ملكشاه وضرورة الوقوف إلى جانبه في هذا الوقت بالذات حفاظاً على الحكم السلجوقي واستمراره، فاستمالهم الى جنب بركباروق، وبهذا تقوى المركز السياسي والعسكري لبركياروق ، وقبل أن يعد العدة لمواجهة تاج الدين تتش ، كان هنالك لبركياروق عم أعمى مسجونا في قلعة تكريت اسمه تتش ايضاً ، إذ كان قد سجنه اخوه ملكشاه ولما تولى بركياروق الحكم اطلق عمه واحسن اليه ، لكن هذا العم لم يكن وفياً لمن اطلقه من السجن واحسن اليه ، ومال إلى اخيه الآخر تتش بعد ان كاتبه الاخير وطلب منه الانضمام اليه فوافق هذا وعندما علم بركياروق بنية عمه

توجه اليه بركباروق وقتله.بعد أن أتم بركياروق استعداداته العسكرية والسياسية توجه للقاء عمه تاج الدين تتش في سنة 488هـ / 1095م وهزمه في موقعة حاسمة قرب الري وقتله ، وبذلك تخلص بركباروق من منافس قوي نافسه على عرش السلطنة السلجوقية.ثم ظهر عم آخر لبركياروق يعرف بـ ارسلان ارغون وقام باحتلال بلخ وترمذ ونيسابور وسيطر على اغلب مدن خراسان وطلب من بركياروق ان يقره على ماسيطر عليه من مناطق، فارسل له بركياروق جيشا لكنه لم يستطع القضاء عليه ، حيث كانت الحرب سجالا بين الطرفين، وظل ارسلان يقلق بال بركياروق برهة من الزمن ، لكن سوء سلوك وسياسة ارسلان تجاه اعوانه وتجاه المناطق الخاضعة لسيطرته جعلت احد اتباعه يغتاله ،وبذلك تخلص بركياروق من منافس آخر اقلقه بعض الوقت ، وذلك في سنة 490هـ / 1096م, وربما جاء هذا التخلص بتدبير من بركياروق او وزيره مؤيد الملك . وعين بركياروق اخاه سنجر

والياً على اقليم خراسان وبلاد ماوراء النهر حيث خطب لأخيه في المناطق التي خضعت لسيطرته ما أخوه الآخر محمد بن ملكشاه ، فقد عينه على منطقه كنجه وعين له اتابكاً كما فعل بأخيه سنجر من قبل ولكن عندما كبر محمد اراد الخروج عن سلطة اخيه بركياروق، وبدعم وبتحريض من وزيره مؤيدالملك الذي عزله بركياروق من منصبه وعين اخاه فخر الملك وزيراً بدلاًمنه فأخذ مؤيد الملك منهاج مؤيد يزين لمحمد الثورة على أخيه بركياروق، وقد نجح في أحداث انشقاق داخل الأسرة السلجوقية وهذه المشكلة واجهها السلاجقة اثناء حكم بركياروق وبعده ، فلم يعن الوزراء بأمور الدولة ومصالح الناس وينظروا الى الاخطار الخارجية المحدقة بالعالم الاسلامي بل عنوا بمصالحهم الضيقة والخاصة جداً دون الالتفات إلى مصلحة الدولة التي ذا ما زالت خسروا كل شيء قد كسبوه من خلالها، وجرت اكثر من خمس معارك عنيفة بين الاخوين ، (492هـ / 1098م، 493هـ 1099م ،495هـ / 1101م، جرت فيها معركتين و 496هـ / 1102م) لم تؤد الا الى ضعف الدولة وتشرذمها وانهاك الشعب في المناطق التي تجري فيها المعارك فاندثرت الزراعة والصناعة والتجارة وصودرت أموال الناس وممتلكاتهم عبر الضرائب التي يفرضها كل طرف عليهم لتغطية نفقات الحرب ، ولما لم تحسم الحروب بين الاخوين الأمر بينهما لجأوا إلى عقد الصلح بين الطرفين الذي نص على ما يأتي:

1-ا يطلق على كل منهما لقب سلطان ويحكم المناطق الخاضعة له.

2- وتكون السلطان محمد المناطق الشمالية وتشمل اذربيجان و ديار بكر والجزيرة والموصل والشام وجزءاً يسيراً من بلاد العراق.

3- تكون الخطبة لكل سلطان في منطقته، دون ذكر اسم السلطان الآخر.

4- يسمح للجند السلجوقي بالانضمام الى أي سلطان يختارونه دون تـدخل أي طرف

محمد بن ملكشاه: 498-511هـ/1104-1117م.

توفي بركباروق وهو في ريعان شبابه نتيجة لجهود جبارة في اقرار سلطته بذلها طوال حياته القصيرة الملأى بالحروب في اقرار سلطته فقد خاض أكثر من عشرين معركة جرح في معظمها فضلا عن محاولات الاغتيال التي تعرض لها فادت هذه الى انهاكه ومرضه ومن ثم الى وفاته وبعد وفاته تولى عرش السلطنة السلجوقية اخوه محمد دون منازع او منافس قوي كما حدث مع بركياروق، ولم ينازع السلطان محمد اخاه الأمير سنجر بل اكتفى باطلاق لقب ملك على نفسه وخطب لأخيه محمد بالسلطنة. وظل السلطان السلجوقي محمد يحكم البلاد دون منافس حتى ادركته الوفاة في سنة 511هـ / 1117م بعد أن عين ابنه محموداً خلفاً

نشوء الاتابكيات

ظهرت هذه الاتابكيات في مناطق مختلفة من العالم الاسلامي وخاصة في المشرق، فقد كان السلاجقة وفق نظامهم القبلي، يرسلون ابنائهم إلى مختلف المناطق من دولتهم للتدرب على الادارة ، ولما كان هؤلاء الأولاد صغارا كانوا يرسلون صحبة اتابك وتعني ابا الامير ، ومع مضي الزمن اصبح هؤلاء الاتابكة هم المسيطرون على الأمراء الصغار وصاروا يتحكمون بهم . وما يهمنا من هذه الاتابكيات هو أتابكية الموصل وحلب. اللتان لعبتا دورا مهما على الساحة السياسية والعسكرية ابان الحروب الصليبية وقد نشأ من هذه الاتابكيات عماد الدين زنكي مؤسس الاسرة الزنكية وابناؤه من بعده نورالدين محمود وسيف الدين ايلغازي ، والذين كنا سببا مباشرا في ظهور صلاح الدين الأيوبي وغيره من القادة الابطال الذين لعبوا دورا جهاديا لطرد الصليبيين من بلاد الشام ، وسيظل يذكر التاريخ سيرة أولئك الابطال الذين سطروا بجهودهم اروع الملاحم ونذروا انفسهم في سبيل

نصرة دين الله ، فلا نامت أعين الجبناء من بعدهم فرقا من الموت لقد طلب هؤلاء الموت فوهبت لهم الحياة .

ب الحروب الصليبية

ترجع اهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا ، الى انها تشكل تجربة في تاريخ المسلمين سواء في المشرق ام في المغرب ، وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة الأثر والنتائج وانما هي تجربة كبرى مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت، الآن وفي المستقبل، لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها وبذلك نحفظ للمسلمين حقوقهم وللامة الاسلامية كيانها ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في بلادنا الاسلامية . ثم ان ذيول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريباً ، لتفصح عن نتائج غربية متناقضة بالنسبة للمسلمين والغرب الأوربي ، فاذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلا في البلاد الإسلامية، في حين صحبت هذه الحروب واعقبتها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوربي هي أساس نهضته الحديثة ؟ الواقع أن هذه الظاهرة تسترعي الانتباه وتستحق منا التفكير العميق فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسؤولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان الاسلامية في اواخر القرون الوسطى ، بعد أن استنفذت جهود هذه البلدان وامكاناتها الاقتصادية والبشرية في الدفاع عن كيانها وكرست مواردها ونشاطاتها للقضاء على الاخطبوط الصليبي الذي ثبت اقدامه في بقعة هي بمثابة القلب من العالم الإسلامي، وأخذ يسعى من خلال ذلك المركز المتوسط الى تهديد بقية بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن بلاد المغرب والأندلس. ولعله من الواضح انه كان من الصعب على المسلمين وسط ذلك الخطر الذي أحدق بهم في صميم بلادهم أن يشتغلوا بالانشاء والتعمير والنشاط الحضاري ، صحيح ان بوادر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضاري قد بدأت فعلاً قبل بدء الحروب الصليبية، حيث كثرة الثورات والخلافات المذهبية والطائفية والتي تسترعي الانتباه، مما ادى الى قيام دويلات في مشرق العالم الاسلامي ومغربه ، فضلاً عن خضوع الخلفاء العباسيين لسيطرة الاتراك والبويهيين والسلاجقة، والذي يشكل دلالة واضحة على ضعف

والحلال الخلافة التي تشكل القلب أو القيادة في ذلك المجتمع وقبل الخوض في الحروب الصلبية هنالك سؤال يواجهنا دائماً و ماهية الحروب الصليبية وما تعريفها، وما هو المقصود بها ؟ الواقع أن الاجابة على هذا التساؤل تختلف باختلاف وجهات النظر التي ينحدر منها هؤلاء المؤرخون ،

فقسم نظر اليها على أنها ((حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب)) او ((هي حلقة اخيرة من سلسلة الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية)) او ((هي نتيجة عن عملية احياء ديني بدأت في غرب أوربا)) او ((هي وسيلة تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من اوضاع العصور الوسطى والانطلاق الى حياة اوسع افقا) ((لكننا نستطيع اعطاء تعريف أقرب الى الواقع وهو ((حركة كبرى نبعت من الغرب الاوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم استعماري على بلاد المسلمين ، وبخاصة في الشرق الادنى بقصد امتلاكها. وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق))) . وفي اوربا لم يعرف المعاصرون لها هذه التسمية بل ان كل ما يعرفونه عنها هو أن الفرسان كانوا يخيطون على البستهم وعلى اكتافهم شارة الصليب وباللون الاحمر ، وكان يشار لهذه الحرب باسماء مختلفة مثل : الترحل والتطوف التجوب الحملة الطريق الى الارض المقدسة، التجوب ماوراء البحار، السير على درب الرب) وهكذا سميت بالحروب الصليبية ، لأن الذين اشتركوا فيها لمحاربة المسلمين (الأتراك والعرب (كانوا يخيطون على البستهم على الصدر أو على الكتف علامة الصليب من قماش أحمر رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية

ج - اسباب الحروب الصليبية

من خلال التعاريف التي اطلقت على الحركة الصليبية نستنتج ان لهذه الحركة دواقع واسباباً مختلفة كل الاختلاف عن بعضها البعض، فلولا ان المجتمع الأوربي في تلك الفترة كان يعاني من أزمات كبيرة لما تطلق بكل تلك الحملات عبثا أو دونما جدوى أو فائدة صحيح أن الامبراطورية البيزنطية استغاثت بالغرب الأوربي جعلته بعدما تعرضت لضغوط السلاجقه ولو لم يكن للغرب الاوربي ما يحرك من اسباب قويه جعلته يدفع بكل تلك الحملات لما انطلقت حملة واحدة صوب الشرق الاسلامي ولم استجابت اوربا بسرعه لتلك النداءات الضغوط ولم استجابت اوربا بسرعة لتلك النداءات والآن نتساءل ما اهم الاسباب التي حركت تلك الحروب والتي استمرت قرابة القرنين من الزمان

1- الباعث الديني:

لقد عرف ريان Riant الحروب الصليبية بأنها ((حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام ((، أن المتتبع للحركة الصليبية يجد أن العامل الديني كان له دور أساسي فيها، لكنه ليس العامل الوحيد والذي ادى دورا مهما ومحركا مباشرا لقيامها، كما يتبين للمتتبع لبواعث الحركة الصليبية في بعض الاحيان فتور العامل الديني في كثير من الأوقات وسط التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وللوقوف على قيمة الباعث الديني في القرون الوسطى يجدر بنا ان نتأمل أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى وما اعترى تلك الاوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر وذلك حتى لا ننزلق في الطريق الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ، وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف ان كنائسهم وأديرتهم قد اغلقت فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الاسلامية التي مروا بها ! وطقوسهم عطلت من الواضح أن هذا المدخل مدخلاً مضللاً للحروب الصليبية بعيداً عن الحقيقة والواقع التاريخي ، ليس بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا اساس له من الصحة ، بل ان الدخول الى تاريخ الحركة الصلبية من هذا الباب الوهمي كفيل بأن يصرف الباحث عن المدير الحقيقي للموضوع. فالقول ان الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهار الذي تعرض له المسيحيين الشرقيين والغربيين في البلدان الإسلامية انما هو ادعاء باطل لا يتفق وروح الاسلام وطبيعة الدعوة اليه وما احاط به القرآن الكريم من رعاية وعناية وما امر به سيدنا محمد دعوتهم إلى الدين الاسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة ((فان حاجوك فقل اسلمت لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين وءاسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا ، وأن تولوا فائما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)) ال عمران 20وقال تعالى ((وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير)) الشورى (15-14) ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الاسلامية عيشة هادئة هانئة تشهد عليه الرسالة التي بعثها بطريق بيت المقدس سنة 869 / 256هـ الى زميله إجناتيوس بطريق القسطنطينية والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق بحيث أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة وذكر بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : ((ان المسلمين قوم عادلون ، ونحن لاتلقى منهم أي أذى أو تعنت)) كما أن القياس على بعض الحالات الفردية لا يمكن ان يكون مقياساً والتي تنبعث في احيان كثيرة عن حالات قصر نظر ، مثلما قام به الحاكم بامر الله الفاطمي من تصرفات

تجاه المسلمين أولاً وتجاه أهل الذمة لكي نقيس عليه حالة المسيحيين في الشرق ، لتؤجج نار حرباستمرت قرنين من الزمان طحنت أبناءاورباقبل ان تطحن أبناءالمسلمين كما أن الاحداث التاريخية تؤكد أنه بعد وفاة الحاكم بأمر الله عادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطينيه وعاد المسيحيون يحظون بما الفوه دائما من الفة ومحبة ورحابة صدر وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس كما وقد الحجاج كعادتهم يزورون الاماكن المقدسة في امن وسلام ولايجوز الاستشهاد بهذه الحال الفردية (عصر الحاكم بأمر الله) والتركيز عليها على أنها المحرك والمسبب الرئيس في الحروب الصليبية وتناسي من جهة اخرى ما قام به الحكام الأوربيون من مجازر واضطهادات صاحبت انتشار الديانة المسيحية والتي بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى فماقام به خلفاء الامبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والباڤاريين والآڤار بحد السيف حتى انه قتل من السكسون وحدهم أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة وما ارتكبه الفرسان التيتيون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولاتهم نشر المسيحية في القرن الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطي هذا فضلاً عما قام به المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند واذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد دابوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن احوال آسيا الصغرى والشام قد ساعت تحت حكم السلاجقة ، بينما يؤكد المؤرخون الأوربيون المنصفون أن المسيحيين الذين خضعوا حكم السلاجقة كانوا اسعد حظاً من اخوانهم الذين عاشوا في المسيحيين في قلب استمرت قرنين من الزمان طحنت أبناءاورباقبل ان تطحن أبناءالمسلمين كما أن الاحداث التاريخية تؤكد أنه بعد وفاة الحاكم بأمر الله عادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطينيه وعاد المسيحيون يحظون بما الفوه دائما من الفة ومحبة ورحابة صدر وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس كما وقد الحجاج كعادتهم يزورون الاماكن المقدسة في امن وسلام ولايجوز الاستشهاد بهذه الحال الفردية (عصر الحاكم بأمر الله) والتركيز عليها على أنها المحرك والمسبب الرئيس في الحروب الصليبية وتناسي من جهة اخرى ما قام به الحكام الأوربيون من مجازر واضطهادات صاحبت انتشار الديانة المسيحية والتي بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى فماقام به خلفاء الامبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والباڤاريين والآڤار بحد السيف حتى انه قتل من السكسون وحدهم

أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة وما ارتكبه الفرسان التيتيون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولاتهم نشر المسيحية في القرن الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطي هذا فضلاً عما قام به المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند الامبراطورية البيزنطية ذاتها ((وان ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر أنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، لأنه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهار المسيحيين الخاضعين لهم))ولكن هل معنى كل ذلك ان الباعث الديني ليس له اثر في تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من معنى كلامي السابق أن العامل الديني يصح موضوع اهماله تماماً عند الكلام عن القوى التي وجهت الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر ؟ الواقع انني لم اقصد ذلك مطلقا وانما اردت ان اصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة الحركة الصليبية اما الاعتبار الأول فهو انه ليس من الصواب اطلاق القول ان هناك اضطهاد فريد حل بالمسيحيين في البلدان الاسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لإستثار الغرب الأوربي واذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية وعلى رأسه البابا أوربان الثاني نفسه قد استغلوا فكرة الاضطهاد الديني هذا للاستهلاك المحلي في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا، فان عام الناس في مختلف بلدان الغرب الاوربي لم يكن يهمهم كثيراً أمر أخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الاسلامية والاعتبار الثاني هو انه لاصحة إطلاقاً للفكرة الخيالية التي ظلت سائدة امداً طويلاً والتي صورت الصليبيين الذين اخذوا يفدون من غرب أوربا الى الشرق من نهاية القرن الحادي عشر في صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفو الورع والتقوى الى هجرة الاوطان والاهل والاحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية وانهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من اجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد في سبيله حقيقة إن العصور الوسطى في الغرب الأوربي عرفت في التاريخ عصور الإيمان وحقيقة إننا نسمع كثيرا من سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس في غرب أوربا في تلك العصور وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هي التي دعت الحرب الصليبية سنة 1095م /488 هـ وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجاً في شكل حملات صليبية ضخمة الاراضي الى الشرق الأدنى ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص المقدسة منهم، لم تكن الباعث الحقيقي الأول الذي دفع البابوية لى القيام بتلك الدعوة ودفع جموع الناس من امراء وعامة إلى تلبية نداء البابا في سهولة ويسر والخروج أفواجاً من غرب أوربا قاصدين الشرق الادنى اما عن البابويه فكانت قد بلغت في القرن الحادي عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ والامكانات الاقتصادية ، ((فقد بلغت في سيطرتها على الأراضي وعلى واردات اوربا درجة

عظيمة وكانت تستثمر الفلاحين الأفنان الذين يعملون تحت رحمتها استثمارا وحشيا)) مما فتح امامها افاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالية بمعنى أن يكون البابا بوصفه خليفة المسيح (عليه السلام) والقديس بطرس الزعيم الروحي الجميع المسيحيين في الشرق والغرب، والمعروف ان البابوية ظلت دائماً ترغب في إخضاع الكنيسة الشرقية الارثودكسية لزعامتهاولكن النزاع الذي استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جديدة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق وأخيراً جاء استنجاد الاباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي كافة في صراعه ضد المسلمين ولمحاولة دمج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية التي استقلت وانفصلت نهائيا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة 1054م/446هـ تحت زعامة خليفة القديس بطرس على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الاراضي المقدسة في فلسطين هذا عن البابوية أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الادنى فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيس الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بإن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو تتحقيق أطماع سياسية وإما الخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحبونها في بلادهم في ظل النظام الاقطاعي واما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها وإما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق. وأي وازع ديني كان عند الوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية وهو البلد المسيحي الكبير لينهبوا كنائسها ويسرقوا اديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ،وهم جميعاً إخوانهم في الدين وهكذا يبدو انه اذا اردنا ان نعرف الاسباب الحقيقية للحركة الصليبية فعلينا البحث في الاوضاع السياسيةوالاجتماعية والاقتصادي في غرب أوربا في القرن الحادي عشر.

1 - اثبتت الابحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والحروب المهمة في التاريخ ونحن مع إعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية تميل الى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة. ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير الى سوء الاحوال الاقتصادية في غرب أوربا، ولاسيما فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر. فالمؤرخ المعاصر جيوبرت لوجات Gulbert Nogent يؤكد ان فرنسا نفسها كانت تعانى مجاعة شاملة قبيل الدعوة

للحملة الصليبية الأولى فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أي بلد اخر في غرب أوربا ومهما يقال من أن هذه الازمة كانت مفتعلة افتعلها التجار المستغلون ومعظمهم من اليهود فالذي يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً في الغرب الأوربي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى وان هذه الازمة ألجأت الناس الى اكل الاعشاب والحشائش. وزاد من سوء الاحوال الاقتصادية في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الامراء الاقطاعيين وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها مما أضر بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها ابلغ الضرر. وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في غرب اوربا باباً جديداً للهجرة وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم فقد عانت اوربا من سوء المواسم الزراعية ومن شتى ضروب الكوارث كما كانت المجاعة تسود في كل المناطق وبلغت الامور حد أكل لحوم البشر فان الراهب المؤرخ رادولف غلابر مثلا يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى وأمسى الجوع يحل أكثر فاكثر في الريف في أواخر القرن الحادي عشر أي ذلك الزمن العصيب الذي سماه المؤرخون بالسنوات السبع العجاف وهذه السنوات سبقت الحروب الصليبية مباشرة في ومن سنة إلى أخرى أخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشحة المعلومات ذاتها تقريبا وقد نعت الراهب سيغيرت من جاسر سنة 1089م/482 هـ بسنة الطاعون وفي هذه السنة ذاتها مراعت هزات ارضية في المانيا وفي برابان وفاضت الانهار في بعض الأنحاء الأمر الذي اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيره من المنويات التاريخية وتذمر سيغبرت من جامبلو من ازدياد جدوبة التربة في سنة1090م/483هـ واعرب عن المخاوف بصدد هم قزل (الجوع الراحل تدريجيا) وكتب المؤرخ الألماني إيكهارد من اوورا عن مرض رهب اصاب الناس والمواشي معا في سنة 1092م/485هـ ونجم عن الجوع وعن النقص في المنتوجات الغذائية والاعلاف اللذين تسبب بهما القحط الناشيء بدوره من برد الربيع ففي أول نيسان تساقط الثلج وكان الصقيع والجليد على حد قول برنولد سمان بليه . وفي سنة 1093م/489هـ تميز جو انكلترا بالعواصف وسوء الطقس ففي الربيع فيضانات وفي الشتاء صقيع قارص وقد تجمدت وهلكت جميع المبذورات وفي السنة ذاتها كانت الغلة ضئيلة وجاع الالمان وفي معرض الكلام عن الاحداث المشهورة ففي سنة 1094م/487هـ اشار المؤرخون الى الوفيات بالجملة من جراء الوباء الشامل الذي شمل بلدان مختلفة ففي رينسبورغ مات في 12 أسبوعا 8500 شخص وفي أحدى القرى مات في ستة أسابيع 1500 شخص وفي قرية اخرى 4000 شخص وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورغونيا وايطاليا ومن جديد تسببت الامطار الغزيرة بضرر فادح وفي أراضي هولندا

استمرت الفيضانات من تشرين الأول 1094م الى نيسان 1095م/487-488هـ وفي فرنسا الجنوبية وجزئيا في المانيا كان الجوع قد خف ولكنه انفجر بقوة في فرنسا وفي انكلترا فقد كتب الراهب والمؤرخ النورماندي اورديريك فيتالي: (ان الجفاف الرهيب حرق العشب في المروج واباد السنابل والخضراوات وتسبب بالتالي في جوع فظيع). وفي سنة

1095م 488هـ كانت نورماندیا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة الوفيات التي أفرغت الكثير من البيوت ودفع الجوع البلايا إلى أقصى الحدود ويتحدث المؤرخينجميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذي ساده في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والأوبئة الحدود ويتحدث المؤرخون جميعهم غربا عن العوز الشديد الذي ساد ولم يكن عجبا أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموع غفيرة من المعلمين والفقراء والمساكين وطريدي القانون وجميعهم كانوا يفكرون ببطونهم قبل أن يفكروا في دينهم بدليل ما أتوه طوال طريقهم الى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التي مروا بأراضيها مما يتعارض مع أي وازع ديني أو اخلاقي يؤمنون به كما يدعون ثم أن الباحث في تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية في ايطاليا وفي غيرها من المدن في غرب اوربا للمساهمة في تلك الحركة سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر الى الشرق أم في نقل المؤن والاسلحة وكافة الامدادات الى الصليبيين بالشام أو مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانيء البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانيء ضد هجمات الاساطيل الاسلامية وهنا أيضاً تستطيع أن نقرر أن جميع جمهوريات ايطاليا البحرية،لم تكن مدفوعة تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين معاً. وسنرى فيما بعد كيف ان البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى فوجهتها لغزو القسطنطينية وهي البلد المسيحي الأمن بدلا من أن تتركها في طريقها الطبيعي المرسوم ضد المسلمين وكان ذلك عندما رأت البندقية ان مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر والواقع إن الصليبيين باشام كان لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة اساطيل البندقية وجنوة وبيزا اذ ان هذه الاساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الايطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين فأنها لم تفعل ذلك اكراما للكنيسه وابتغاء مرضاة الله وانما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبيه في الشام حصلت بموجبها على امتيازات اقتصادية هامة ففي معظم موانىء الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الايطالية التجارية باعفاءات خاصة

فضلاً عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الايطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الامارة الصليبية التي يتبعها الميناء ولم تلبث مرسيليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الايطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في عدد من المدن الصليبية في الشام اذ منح الملك بلدوبن الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسيليا حياً خاصاً بهم في مدينة القدير ذاتها سنة 1117م/ 511هـ ولم يتأت هذا الاعفاء من فراغ فلابد من تقديم جهد مماثل للامارات الصليبية في بلاد الشام كما اعفى الملك فولك تجار مرسيليا من الضرائب والتي كانت تقدر بمبالغ كبيرة في ذلك الوقت ومنحهم الملك بلدوين الثالث امتيازات واعفاءات من الضرائب في كافة المدن والموانىء الصليبية في سنة 1152م/547هـ. وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول امرها بصبغة اقتصادي استغلالية واضحة فكثير من المدن والجماعاتوالافراد الذين أبدوا تلا الحركة وشاركوا فيها ونزحوا الى الشرق لم يفعلوا ذلك خدمة للصليب وحرب المسلمين وانما جرياً وراء المال وجمع الثروات والقاء مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب العالم الاسلامي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة حقيقة ان الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الثورة الصناعية في أوربا ولكن ليس معنى ذلك ان العالم القديم لم يعرف الاستعمار منذ القدم وفي القرون الوسطى كانت الحروب الصليبية أول تجربة للاستعمار الغربي قامت بها الامم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق على حد قول Thompson في كتابه Economic and the Social History voltip397 وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم مع بعض في بلاد الشام وقد استمرت هذه الحروب بين مدن البندقية وجنوة وبيزا في اشد الاوقات حرجاً بالنسبة للصليبيين أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر ، عندما أخذت البقايا الصليبية في الشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى وعندما ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم مع بعض أعمق جذوراً وأقوى تأثيراً وأكثر نفعاً من شعور الولاء للدين والكنيسة.

2- الباعث الاجتماعي : تألف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات طبقة رجال الدين من الكنسيين والديريين وطبقة المحاربين - من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين - من الأفنان ورقيق الأرض وكانت الطبقتان الاولتان اقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية في حين ظلت طبقة الفلاحين

تمثل الغالبية العظمى المغلوبة على امرها والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين والواقع أن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوربا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الاشجار وفروعها غطيت سقوفها وارضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها آثاث ما عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الادوات الفخارية المعدنية البسيطة وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والافنان الذين ارتبطوا وراثيا بالأرض التي يعملون عليها وقضوا حياتهم محرومين من ابسط مبادىء الحرية الشخصية فكل ما يجمعه القن بعد ملكاً خاصاً للسيد الاقطاعي لأن القن محروم حتى من الملكية الشخصية ثم ان أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للاقطاعي مثل فلاحة أرضه الخاصة فضلاً عن تسخيرهم في اعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل من دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته هذا ماعدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضراوات فإذا اضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي الزم بها الفلاح الطحن في مطحنة الاقطاعي العصر في معصرة الاقطاعي الشراء من دكان الاقطاعي أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاش فيه غالبية الشعب الاوربي في القرن الحادي عشر فالسيد الاقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة ومعصرة وفرناً بل أحياناً البئر الوحيد في الضيعة كما ذكرنا مسبقاً وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً باحضار غلته الى طاحونة السيد الاقطاعي لطحنها يحمل خبزه الى فرن السيد لخبزه وكرومه وزيتونه وتفاحه الى معصرة السيد لعصرها كل ذلك مقابل اجور معينه يقدمها الاقنان والفلاحين لسيدهم الاقطاعي وهم صاغرون فاذا امتلك فلاح طاحونه يدويه او غير ذلك من الاجهزه التي من حق السيد الاقطاعي وحده ان يحتكرها صار ذلك جرما يحاكم عليه وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان وكان ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية فوجدت تلك الألوف من البؤساء في الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت تعيش فيه من ذل العيش ونكد الدنيا ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار فإن أخطارها هانت امام الفاقة والذل والهوان التي كتبت على طبقة العوام ان يعيشوا فيها في غرب اوربا دون امل في الخلاص فإذا ماتوا في تلك الحروب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب اليهم من حياة الجوع والذل والعبودية وان وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة ، لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلا في بلادهم الاصلية ومن هنا يبدو جلياً أنه اذا كانت الوف العامة من غرب أوربا قد اسهموا في الحركة الصليبية فإنما دفعتهم الى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية مهمة فوجدوا في تلك الحركة متنفساً إلى حياة افضل وتستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم

الاصلية حياة حرة وكريمة وقدر مناسب من كرامة العيش لما غامروا بترك أوطانهم وزوجاتهم واطفالهم وأقاربهم الذين يشعرون بالطمانينة معهم وانجرفوا وراء وعود خيالية اسرفت الكنيسة في تقديمها

3- الباعث السياسي ولكن اذا كانت العاقه والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبيه العظمى من الصليبين الى الترحيب بالدعوه الجديده والمشاركه بالحمله الصليبيه بحثا عن حياه افضل فما الذي دفع عددا من ملوك اوربا وامرئها وفرسانها للمشاركه في تلك الحركه؟ أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية فريديك بربوسا وريتشد قلب الاسد وفيلب او اوغسطيس وفريدريك الثاني فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابويه والحاحها بل تهديدها وربما كان هذا الحكم بعيدا عن الصحه في حالة واحده هي حاله لويس التاسع ملك فرنسا الذي استهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس والذي أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعاله اما من عداه فان تاريخ البابويه وتاربخ غرب اوربا وتاربخ الحركه الصليبيه يشهد على السفارات العديده التي دأب البابوات على ارسالها بين حين واخر الى ملوك اوربا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم الى الشرق لمحاربه المسلمين وإن من يدرس تاريخ الغرب الاوربي في الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية و عالم اسهاعر ان ملكاً من ملوك اوربا كان لا يستطيع أن يعصي لها امرا او يرد لها طلبا و تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها من يستطيع الاحتفاظ بعرشه او بولاء شعبه له وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحد بعد آخر يلحدون عليه بالخروج على رأس حمله صليبية الى الشرق ضد المسامين ولم يجد الامبراطور دافعا يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان وعندئذ خرج الامبراطور مكر لابطل على رأس فئة قليلة من جنده قاصداً الشام وبادر بمجرد وصوله الى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وانه ماله (ماله غرض في القدس ولا في غيره انما حفظ ناموسه عند الفرنج !) هذا عن الملوك أما الامراء الذين أسهموا في الحرب الصليبية فمعظمهم على يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم الى الشام وبعد استقرارهم فيها والمعروف أن النظام الاقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الاقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة التي يمكن ان تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود اقطاع أو ارض له مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ وقد ادت طبيعة النظام الاقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون ارض لأنه من

القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاعي فاذا مات صاحب الاقطاع انتقل الاقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه ومن الواضح أن هذا المبدأ يعني بقاء بقية الابناء بدون ارض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الاقطاعي وهنا تتبين عظمة الدين الاسلامي في توزيع الميراث وهو المساواة بين الابناء من جهة والبنات من جهة أخرى، فالأولاد متساوون في حصصهم والبنات متساويات في حصصهن فسبحان من خلق وهو اللطيف الخبير ونتيجة لما سبق فقد لجا الأمراء المحرومون من الاقطاع الى الزواج من بنت الاقطاعي الذي ليس لديه ولد للحصول على مال ابيها بعد موته وهكذا كما سعى هؤلاء الأمراء ايضا إلى اشعال نار الحروب والفتن والقلاقل للحصول على الإقطاع وكان ان ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جدا امام اولئك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمه في تلك لعلهم ينجحون ي في تأسيس امارات لأنفسهم في الشرق تعويظا عما فاتهم في الغرب وحتى أولئك الأمراء الذين كانت لديهم امارات القطاعية في بلادهم الاصلية وجدوا فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الامراء الغربيين الذين اسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيرا ما دبت بينهم وبين بعض مما انزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي حتى أن أمراء الحملة الأولى أخذوا يقتسمون الغنيمة حتى قبل الحصول عليها وهم في طريقهم إلى الشام قبل ان يستولوا على الغنيمة فعلا وكيف استحكم النزاع بينهم أمام انطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسبا في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى عن مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس وهو الهدف الأساسي للحملة كما تستطيع ان تلاحظ كيف ان الخلافات كثيراً ما كانت تدب بين الامراء الصليبيين في بلاد الشام بسبب نزاعات اقليمية ضيقة من اجل الفوز بحكم امارة او توسيع مناطق النفوذ وقد كانت البابوية تتدخل من أجل فض هذه النزاعات وتذكر البابوية الامراء الصليبيين بأن المسلمين يحيطون بهم ويتربصون بهم الدوائر ولكن دون جدوى لأن هدف الامراء كان ذاتياً سياسياً ولم يكن يهمهم رضاء البابا أو سخطه ،كما أن بعض الامراء الصليبيين لم يحجموا عن التحالف مع القوى الاسلامية في المناطق المجاورة لهم ضد اخوانيهم الصلبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئه الامراء امام مصالحهم السياسية الشخصية.فضلاً عن ذلك كله هناك عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربي على المشاركة فى الحركة الصليبية ذلك أنه من المعرف ان النظام الاقطاعي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب واظهار الشجاعة وأن حياة السلم كانت تعني البطالة عند هؤلاء الفرسان الذي لا عمل لهم إلا الحرب والقتال وعندما كثرت الحروب الاقطاعية وهددت المجتمع الأوربي تهديداً خطيراً تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم ((هدنة الله)) وهي اوقات معلومة يحرم فيها القتال.

وعندئذ بحث الفرسان الأوربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم فابتكروا المبارزة ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت اظهار أكبر قدر من المهارة باقل قدر من الاصابات واراقة الدماء لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة حتى اذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت امامها باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية بغض النظر عما في المشاركة في تلك الحركة الجديدة من سعي مشكور وذنب مغفور